

أمل دنقل وقصيدة الرفض

جابر عصفور يكتب في تحولات شاعر غاضب



محمود فراج النابلي
كاتب من مصر

□ مثلت قصيدة أمل دنقل على تعدد موضوعاتها وأشكالها مشروعاً إبداعياً فريداً ووحيداً (إن جاز الوصف) وقف متحدياً لكافة السلطات الأبوية والسياسية والدينية. لذا صارت قصيدته أيقونة وشعاراً للرافضين لهذه السلطات المناوئة، وللحالمين بغدٍ خالٍ من هيمنة هذه السلطات.

يستعيد جابر عصفور في كتابه الجديد "قصيدة الرفض: قراءة في شعر أمل" الصادر حديثاً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب 2017، في 584 صفحة من القطع المتوسط هذه القصيدة منذ بواكيرها وصولاً إلى مواجهات الموت وتقابلات الشاعر مع آخرين كاحمد عبدالمعطي حجازي تارة وصالح عبدالصبور وأدونيس والماغوط تارة أخرى وصولاً إلى عبدالمنعم رمضان. لا يستدعي عصفور أمل ومسيرته الإبداعية فحسب بل يستحضره إبان ثورة يونيو 2013، ويتخيل ماذا كان أمل فاعلاً في هذا الحدث؟! الغريب أن في هذا الاستحضار ينتخب الناقد مواقف معينة لأمل، فمثلما كان أمل رافضاً للسلطة الدينية وثائراً عليها، كان رافضاً أيضاً لكل ما هو ضد الحريات ورافضاً لكافة أشكال القمع والتهاون والتفريط. وهو ما يحسب ضد جابر عصفور. فرفض أمل لا يمكن تجزئته واستدعاؤه في مواقف دون أخرى.

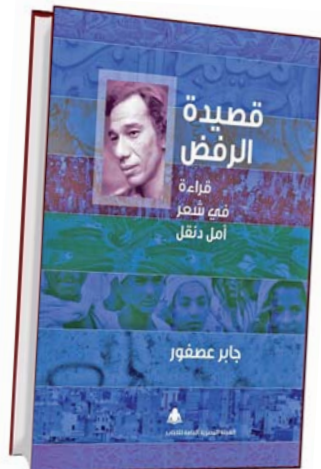
وعى أمل

يحتوي الكتاب على ستة أسفار تداخلت في كثير منها بين سيرة أمل الشعرية والحياتية، فالكتاب يميل إلى تقاطع المحور الرأسي حياة أمل ونشأته وتمرده وصولاً إلى مرضه، مع المحور الأفقي حيث تطور القصيدة لدى أمل وما احتوته قصيدته من جماليات مفارقة كسخرية المقومعين وجماليات الصورة والنقض البلاغي. إلى جانب وضع قصيدة أمل في تقابلات وتوازيات مع أشعار معاصرين لأمل وآخرين موازين له في التجربة الشعرية.

يؤسس المؤلف في البداية لمفهوم قصيدة الرفض الذي صاغه لويس

عوض في مقالته الشهير عن أمل ومعاصريه، وإن كان عصفور ينسب تاصيلها لأمل ويعرفها بأنها هي "القصيدة التي تكشف عن واقع الضرورة لتستبدل به عالم الحرية والعدل والمساواة وكانت هذه القصيدة صادرة دائماً، عن مبدأ الرغبة وليس مبدأ الواقع، مباشرة بالعالم الأكمّل، والأجمل، فالرفض في هذه القصيدة فعل خلاق، لا يرضى بما هو كائن أو واقع، إنما يبحث عمّا يجب أن يكون، وما ينبغي أن يقع. ولذلك فمملكتك -إنما- في العهد

الآتي. لكن العهد الآتي دائماً سرف في الإمكان الأكمّل، وليس نقطة وصول، إنه الحلم المستمر أبداً، والبحث المتصل دائماً، عن هدف متحرك، كل محطة وصول إليه هي حلم بالوصول إلى ما بعده. فالعهد الآتي



هو الحلم الأكبر الذي يغرينا ما تحقق منه بالوصول إلى ما بعده".

يشير عصفور في مفتتح الكتاب إلى أن الكتاب ليس دراسة أكاديمية لشعر أمل، وإنما هو قراءة لشعر صديق حميم، ومن هنا تأتي الكتابة كنوع من الوفاء لهذه الصداقة الحميمة التي أتاحت لهذه القراءة ما لم يُتَحَ لغيرها، وهي معرفة تراث أمل الأدبي، ومن ثم فالذاتي يتجاوز مع الموضوعي في هذه القراءات النصية.

المثير حقاً أن الكتاب لم يأت بقدر الطموح الذي راهن على هذه الصداقة، علاوة على تراكم تجربة عصفور النقدية، فقد غلب على معظم المقاربات النصية التي قدمها الناقد لشعر أمل التحليل وهو أقرب إلى الشرح المدرسي منه للدرس النقدي، فيقف عند الظروف التاريخية لكتابة القصيدة، رابطاً هذا بمراحل النضج في وعي أمل وهذا ظاهر في إشارات لانتقالات القصيدة من العمودي إلى الحر، ومن الإغراق في الرومانسية إلى الواقعية. كما غلب التنظير للسباق السياسي الملتهب على حساب التقنيات التي اعتمدها أمل في تحولاته أو حتى التعبير عن حالاته الشعرية.

الشيء المثير هو أن الكتاب خلا من المنهجية العلمية فلم نلاحظ أي أثر للمناهج النقدية التي كان عصفور رسولها في عالما العربي والتي تتناها طيلة مسيرته العلمية أو في رئاسته لفصول وقد جعل منها نافذة على المناهج الغربية الحديثة، أو بترجماته لهذه المناهج. أو حتى بتحويلات عصفور ذاته من البنيوية الماركسية إلى التوليدية إلى النقد الثقافي. فالمؤلف يعمد إلى المنهج التحليلي والمنهج التاريخي في ربط النتائج الشعرية بالأحداث والمخاضات التي عاصرتها وأفرزتها.

بواكير التوهج

يربط عصفور بين الشكل العمودي الذي اختاره أمل دنقل في الكتابة وظروف تكوينه حيث كانت نشأته في بيئة الأب ذي الثقافة الأزهرية، علاوة على أن الكتب التي كانت متاحة في قريته لم تكن تعرف أشعار كل رواد حركة الشعر الحر.

كان أمل في بواكيره يكتب في موضوعات متعددة إلى أن جاءت حرب 1956 فتحوّل إلى الشعر الوطني. في الكتاب الأوّل ثمة جانب تاريخي يؤرّخ فيه لنشأة أمل، وإن كان يبدأ في الإسهاب بعد حصوله على الثانوية وذهابه إلى القاهرة ثم عودته للعمل في محكمة قنا إلى جوار صديقه عبدالرحمن الأبنودي. يلفت الناقد إلى أن أغلب القصائد في هذه الفترة لم يضمها إلى كتاب، باستثناء ما رضى عنها. كما أن التحول من وحدة الشكل العمودي إلى الشكل الجديد ومن الموضوعات التقليدية إلى الموضوعات الواقعية لم يكن دفعة واحدة.

وكان لانفتاح أمل على العوالم الرومانسية أثره في هجر القافية الموحدة وتفضيل الأوزان التي أصبحت أثيرة لحركة الشعر. ويركز الناقد على تحليل قصائد

أمل دنقل.. شاعر المهمشين والمقموعين

البدائيات التي لم تتشعر، والتي احتوت على إظهار الحس الوطني لأمل كما في قصيدة "عيد الأم" أو انتقاد التدين الزائف كما في قصيدة "المنبر" أو "صورة من القرية" وهي من قصائد النقد الاجتماعي الحاد وتؤصل لرفض أمل المبكر للسلطة الدينية والخطاب المتهالك للوعاظ والأئمة. وتنتمي قصيدة "الأطفال والخطيئة" وهي من القصائد المخطوطة إلى ما يظهر الحس الأخلاقي، وبالمثل قصيدة "اعتراف" حيث الإمتثال لأعراف فيما يخص قضية العار أو الشرف، وإن كان أمل لم يعف هذه الأنساق في مسؤولية القتل، في إشارة إلى رفضه لهذه التقاليد وإن ظل أمل في بداية حياته الشعرية محافظاً على العنصر الرومانسي في شعره وتخلل بعضه رمزية كما في قصيدة "مقتل القمر".

قناع الثائر الأول

يقرن جابر عصفور بين تحولات أمل الشعرية وإدراكه الوعي الحدائي الذي هو وعي مدني بامتياز، وقد كان للإسكندرية التي انتقل إليها أمل الإسهام الوافر في تأسيس الوعي المدني ببعده الجمالي. اللافت أن العناصر المدنية في شعره كانت منحازة إلى المهمشين المقموعين ضحايا العلاقات المتحولة للمدينة التي باعت نفسها وتخلت عن مجدها في زمن السقوط والانهيهار والهزيمة، وإن كان جاعلاً من الهزيمة الداخلية طريقاً للهزيمة الخارجية. وهذا الوعي المدني ينتج حال تمرد على علاقات المدينة القمعية كما أفرزتها على المثقفين ومهمشي المدينة، ينتج قصيدة رفض، ومع أنها تبدأ بالسياسة إلا أنها تمتد إلى غيرها من المدارات الضاغطة للوجود

الإنساني. فحسب مفهوم أمل للشعر بأنه "يجب أن يكون رافضاً للواقع دائماً حتى لو كان هذا الواقع جيداً؛ لأن الشاعر يحلم بواقع أفضل منه" وبناء على هذا ظلت قصائد أمل متوهجة بالرفض السياسي الاجتماعي، كما أن نزعات الرفض لا تقتصر على الحياة المصرية وإنما بتعبير عصفور كانت "تتخذ من النموذج السياسي الاجتماعي المصري مثلاً لغيره من النماذج العربية على امتداد الوطن العربي".

شعرية المرض

في الكتاب الرابع من الكتاب يتحدث عن شعرية المرض ويخصّ بها القصائد التي كتبها الشعراء وهم يصفون معاناتهم مع الأمراض وهي قديمة تمتد إلى قصيدة الحمى لدى المتنبي. وفي رأيه أن هذه القصيدة انتصار على الموت وانتزاع الحياة من برائته. فهي قصائد مقاومة هدفها الأول نزع البرائن القمعية عن غول الموت الرهيب وتحويله إلى كائن مستانس تنقلب صورته الوحشية إلى صورته الإنسانية بسحر الشعر. يُمرّر في كثير من أجزاء الكتاب حكايات خاصة به وبأمل وظروف نشر قصائد أمل، وكان على جابر عصفور أن يجعل من هذه الحكايات الشخصية خارج تناوله الفني لشعر أمل وهو الجانب الذي اختفى لحساب التاريخية والتحليل والشرح وأيضاً الذاتي. ومن ثمّ جملة "قراءة في شعر أمل" التي شكلت النصف الثاني من عنوان الكتاب غير دقيقة على مستوى القراءة التي يرفضها المنهج، ولا على مستوى المعنى العام الذي يوظفه الكثيرون في أعمالهم وإن كانت أقرب إلى مفهوم التحليل، باستثناء الكتاب الخامس في "بلاغة الكتابة" حيث ثمة وقفات



وإن كانت أشبه بالإشارات أمام بعض قصائد أمل. فيشير إلى أن أمل كان واحداً ممن يتوقفون عند حق الشعر كثيراً، ويحرصون على فنيتها عالياً، وفي الوقت نفسه مراعاة الجمهور.

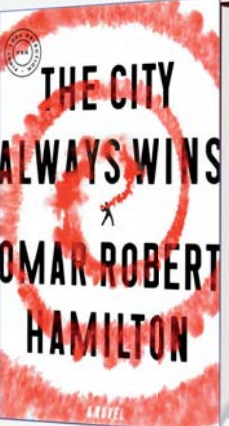
جابر عصفور يقرن بين تحولات أمل الشعرية وإدراكه الوعي الحدائي الذي هو وعي مدني بامتياز، وقد كان للإسكندرية التي انتقل إليها أمل الإسهام الوافر في تأسيس الوعي المدني ببعده الجمالي. اللافت أن العناصر المدنية

كما يحتفي بسخرية المقموع في تجربة أمل، وبالمثل يمثل لقدرة أمل على التضمين والإشارة، وإن كان قصرها على التراث وتجاهل ما عداها عمداً. كما يقف عند النواحي البلاغية اللافتة في شعر أمل كالتشبيه وما يتولد عنه من استعارات وهي ظاهرة أصبحت ملمحاً أساسياً في شعر أمل. ثم الصورة الشعرية متتابعة الأجزاء وكأنها شريط سينمائي، والأخرى التي تغلب عليها الإحساسات البصرية. وبالمثل النقض البلاغي والمقصود به المخالفة أو التضاد مع قيم أو تقاليد أو شعائر أو مواقف موروثية على المستوى البلاغي وليس المنطقي. وأخير الإفق الرمزي الذي دخله أمل بفضل شعراء الجيل السابق، فقد تعلم منهم استخدام الرموز الكلية التي تجسدها الشخصيات الأيقونية.

من ميدان التحرير

□ "المدينة دائماً تنتصر" من تأليف روبرت هاملتون، هي الرواية خرجت من خضم ثورة 2011 في ميدان التحرير في مصر. الشخصيتان الأساسيتان مريم وخلييل يسافران عبر شوارع القاهرة المضطربة والنشاط السياسي السري ويناضلان من أجل ثورة جديدة، بينما يتفرج العالم على المشهد. لاعبان يشاركان في صنع تاريخ في طور التشكل. من ذروة المعارك الليلية مع الشرطة إلى الأوقات الصعبة عند النفث بعد الثورة يستكشف كتاب هاملتون سيكولوجية الناس في مصر عبر أحد الفصول الأساسية في القرن الحادي والعشرين.

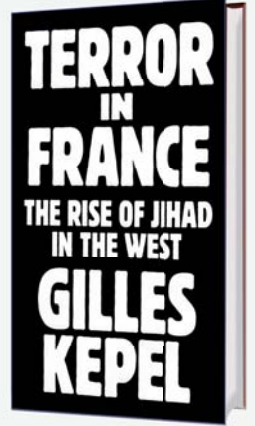
روبرت هاملتون مخرج سينمائي حائز على العديد من جوائز، يقيم ما بين القاهرة ونيويورك ويكتب لصحيفتي "ذي غارديان" و"لندن ريفيو أوف بوكس".



فرنسا والإرهاب

□ "الإرهاب في فرنسا: تصاعد الجهاد في الغرب" للكاتب جيل كيبيل يبين فيه صاحبه كيف أن الجرائم الفظيعة التي ارتكبت في فرنسا تصور نوبة مفاجئة من العنف ما انفكت تتعاقب على مدى سنوات. وحدثت نقطة التحول في سنة 2005 عندما اندلعت أحداث الشغب الإسوا من نوعها في التاريخ الفرنسي الحديث في الضواحي الفقيرة ذات الأغلبية المسلمة للعاصمة باريس على إثر وفاة ولدين كانت تلاحقهما الشرطة. وخلق ما يسمى "الانتفاضة الفرنسية" وعيا جديداً بين الشباب من المسلمين الفرنسيين، فهم يتبعون خطاب "حرب الحضارات" بطرق لا يمكن لأبائهم وأجدادهم تخيلها.

"نيورك ريفيو أوف بوكس" رأت في مراجعة للكتاب أن "الإرهاب في فرنسا" هو "أهم كتاب يمكن أن تقرأه عن فرنسا اليوم، وبعد كتاب جيل كيبيل أحسن عرض للعوامل والأحداث التي ساهمت في خلق الوضع الحالي". وقالت الفايينشل تايمز "إن الحديث المفصل عن كيف أصبحت المدن الصغيرة معاقل للإسلام المتطرف يجعل من الكتاب ذا جاذبية لدى القراء خارج فرنسا الذين يرغبون في فهم النزعة الجهادية داخلية المنشأ".



نزاع بين هويتين

□ "شمعدانات ومنازل" للكاتب كمال رحيم رواية لقصة نادرة عن الجالية اليهودية المصرية. يعود جلال، الشخصية الأساسية في الرواية إلى القاهرة بعد عشرة أعوام من الإقامة في باريس ويجد أن القاهرة في تحول مستمر. وبالرغم من أنها موطنه يشعر بأنه لم يعد ينتمي إلى ذلك المكان. هو منقسم بين هويتين: عائلة أمه اليهودية وأفرادها رجال أعمال يقيمون في المدينة، وعائلة أبيه المسلم وعناصرها مزارعون يسكنون ريف الدلتا. هذه الرواية هي خاتمة ثلاثية مثيرة ترمص صورة لكيفية إملاء جيل قديم على أبنائهم كيف يعيشون ويعشون.

كمال رحيم ولد في مصر في سنة 1947 يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة. ألف مجموعة قصص قصيرة وخمس روايات.

